RJH | Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website
Vol. 13, No. 3 (2026)

Received: 13th July 2025 Accepted: 13th September 2026 Published online: 20th September 2026

Civilizational Alienation and Its Reflections in the Novel A Stranger in London by the Novelist Jamal Haidar

Sheren Satar Hamdamen[1]
shireen.satar@koyauniversity.or
[1]Department of Arabic Language, College of Education, Koya University, Koya, Kurdistan Region, Iraq.

Abstract

Alienation has become one of the defining phenomena of contemporary societies, reflecting the psychological, social, and cultural transformations experienced by individuals under conditions of displacement and instability. This study investigates the manifestations of civilizational alienation in Jamal Haidar's novel A Stranger in London, examining how the novelist reconstructs an ancient yet marginalized civilization through the protagonist's symbolic relationship with the memory of distant historical eras. Iraq occupies a central position in the narrative as a symbolic space where different forms of alienation intersect, shaped by political turmoil, social fragmentation, and cultural disruption.

The novel was selected because it provides a profound literary representation of the psychological consequences of alienation, portraying the characters' experiences of estrangement, anxiety, disappointment, and loss of belonging. These experiences gradually transform alienation from an individual psychological condition into a broader existential and civilizational crisis. The narrative also illustrates how oppressive social and political conditions erode personal identity and collective consciousness.

The findings reveal that the novel presents interconnected forms of alienation, including self-alienation, emotional alienation, and spatial alienation, all of which contribute to the fragmentation of the self and the weakening of its relationship with the Other. These dimensions expose the psychological emptiness caused by displacement and cultural dislocation, presenting alienation as a dominant narrative phenomenon that reflects the recurring suffering of individuals and the erosion of existential and civilizational values in contemporary Iraqi society.

Keywords: Civilizational Alienation; Self-Alienation; Civilization; Iraq; A Stranger in Londo.

RJH Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website

الاغتراب الحضاري وانعكاساته في رواية (غريب في لندن) للروائي جمال حيدر

شيرين ستار حمدامين[1]
[1]قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة كويه، كويه، إقليم كوردستان، العراق.

الملخص

أصبحت ظاهرة الاغتراب سمةً بارزة من سمات المجتمعات الإنسانية، وتكمن أهمية هذا البحث في استحضار حضارة عريقة لكنّها مهمشة، تجسّدت عبر علاقة تعويضية لذات الروائي مع أرواح عاشت في عهود زمنية غابرة. وقد كان للعراق النصيب الأوفر من تجليات الاغتراب بأنواعه المختلفة؛ إذ تُعدّ هذه التجربة من أضخم التحديات التي تواجه الأوطان عموماً. ومن هذا المنطلق، حاول الروائي محاكاة واقعه عبر توظيف مفهوم الاغتراب؛ ليتعامل بموضوعية وعمق مع شخوص روايته، ويجسّد أبعادها النفسية والواقعية بشكل أفضل.

ومن تلك الروايات؛ رواية (غريب في لندن) لجمال حيدر، والتي تمثّل ثمرة جهودٍ حثيثة بذلها الروائي على مدار سنوات طويلة؛ ليجسد عبرها أبرز الأحداث التي شهدها وطنه العراق. وقد وقع اختيارنا على هذه الرواية كونها النموذج الأبرز؛ إذ نجح الكاتب في تصوير تناقضات النفس البشرية، وما يعتريها من مشاعر الغربة، والقلق، والخذلان، وصولاً إلى الاغتراب النفسي والذاتي الذي أصاب الشخصيات، وجعلها تشعر بمرارة واقعٍ حَرَمها من بناء ذكريات جميلة.

وتكشف الرواية عن تجلّيات عديدة للاغتراب؛ تتوزّع بين ما هو ذاتي، وعاطفي، ومكاني، عانت منه الشخصيات جراء ضيق العيش وسوء الإدارة الحاكمة آنذاك. وقد أدّى هذا الواقع إلى تآكل الحقيقة الوجودية للشخصيات المتمثلة بـ (الأنا)، وتراجع علاقتها بـ (الآخر) إثر الفراغ النفسي الكبير الذي خلّفه الاغتراب؛ ليتحول هذا المفهوم إلى ظاهرة بارزة عكست عمق المعاناة والأحزان المتكرّرة للشخصيات.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب، الحضارة، الاغتراب الذاتي ، لندن، المكان الأوّل.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنّ قيمة العمل الأدبي -أيًّا كان جنسه- لا تكمن في طبيعة الموضوع الذي يتناوله فحسب، بل في الكيفية التي يُعبَّر بها عنه ويُقدَّم عبرها إلى المتلقّي، وهذه الكيفية ليست إلا الحصيلة النهائية لتضافر العناصر المكوِّنة للبنية النصية وانصهارها في بوتقة الإبداع؛ إذ ترتبط هذه المكونات فيما بينها بعلاقات متماسكة تُسهم في تشكيل الرؤية الفنية للنص، بما يتيح له أن يكون وسيلة أمينة لنقل رؤى الكاتب وأفكاره إلى القارئ.

ويُعدّ الاغتراب من الظواهر النفسية والحضارية البارزة التي تصيب الأفراد في المجتمعات التي تعاني اضطرابات اقتصادية وسياسية واجتماعية، أو صعوبات تحول دون تأقلم الذات مع بيئتها المحيطة، مما يدفع الإنسان إلى الهجرة بحثًا عن أفق أرحب وحياة أفضل. ولا يقتصر أثر الاغتراب على البعد الجغرافي للفرد عن مجتمعه فحسب، بل يمتد أحياناً إلى أعمق من ذلك ليجعله غريباً عن ذاته وهويته.

وتنبع أهمية هذا البحث من رصده لظاهرة الاغتراب بوصفها إحدى الأزمات الوجودية والاجتماعية التي تجسدها الرواية الحديثة، في ظل الظروف القاسية التي تدفع بالذات إلى ترك أوطانها. وتتجلّى قيمته في مقاربته لهذه الظاهرة ضمن إطار نقدي حضاري، يكشف عن انعكاساتها على البنية النفسية للمهاجر من جهة، وعلى محيطه من جهة أخرى. ويُعدّ الاغتراب الحضاري من أشدّ الأنواع تأثيراً في الذات المغتربة؛ لما يرافقه من صدمات ثقافية وتحولات تفرضها البيئة الجديدة. ومن هنا تسعى الدراسة إلى تفكيك تجلّيات الاغتراب في عالم الرواية، ومدى قدرة الشخوص على التكيف مع واقعهم الجديد عبر تتبع صور الاغتراب: الذاتي، والعاطفي، والمكاني.

وقد جاء اختيار رواية (غريب في لندن) للروائي جمال حيدر موضوعاً للدراسة انطلاقًا من الرغبة في تسليط الضوء على حالة فقدان الانتماء والشعور بالتشظّي التي يعاني منها بطل النص، فضلاً عن رصد تأثير صراع القيم والمعتقدات في منظومة المغترب. كما أنّ تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية في البيئة الأم جرّاء الحروب والصراعات، أسهم في تفاقم هذه الظاهرة حتّى غدت

تيمة عالمية. وتتميّز هذه الرواية بقدرتها العالية على تصوير المعاناة الإنسانية، وتشبث البطل بخصوصيته وهويته العراقية رغم قسوة الأحداث ومأساويتها.

وبناءً على ما تقدّم، يهدف البحث إلى استجلاء أنواع الاغتراب وتجلياتها المختلفة وفق منظور نقدي وحضاري، والكشف عن المقومات المشكّلة للاغتراب الحضاري، بما يُسهم في تكوين رؤية نقدية شاملة لأبعاد هذه الظاهرة في النص المختار.

أما المنهجية المعتمدة، فقد استندت الدراسة إلى المنهج الوصفي التحليلي؛ لملاءمته لطبيعة الموضوع، وقدرته على سبر أغوار الظواهر الأدبية، والكشف عن آليات تجسيدها في النص الروائي، فضلاً عن توافقه مع طبيعة الأحداث المتناولة.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة تقسيم البحث إلى مقدّمة، ومبحثين، وخاتمة؛ تناول المبحث الأوّل: «الإطار المفهومي: الاغتراب والحضارة وعلاقة الاغتراب بالانتماء»، وجاء المبحث الثاني بعنوان: «تجليات الاغتراب في رواية غريب في لندن»، وتضمن ثلاثة مطالب؛ خُصص الأوّل للاغتراب الذاتي، والثاني للاغتراب العاطفي، والثالث للاغتراب المكاني. ثمّ خُتم البحث بخاتمة أوجزت أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة، تلتها قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأوّل: مفاهيم البحث: مفهوم الاغتراب

المعنى الاصطلاحي للاغتراب لا يخرج عن معناه اللغوي، الذي هو الأساس الذي يقوم عليه الشيء ومنشؤه الذي ينبت منه؛ لأنه يتمثّل في حالة انفصال الفرد أو ابتعاده عن محيطه. ويرى د. عبد اللطيف محمد خليفة أن الاغتراب هو: «عدم التكيف، وعدم الثقة بالنفس، والمخاوف المرضية، والقلق والإرهاب الاجتماعي، وغياب الإحساس بالتماسك الداخلي في الشخصية، مع ضعف الشعور بالهوية والانتماء وعدم الإحساس بالأمن. وينظر إلى الاغتراب عن الذات بوصفه اضطراباً نفسياً يتمثل في اضطراب الشخصية الفصامية العاجزة عن إقامة علاقات اجتماعية مستمرة، والافتقار إلى مشاعر اللين، والدفء، والرقة مع الآخرين» (خليفة، 2023، ص 81-82).

1- الاغتراب: هو دلالة على ما يحدث للإنسان من «اضطرابات نفسية وعقلية، وما يستشعر من غربة في العالم، وفتور أو جفاء في علاقته بالآخرين» (رجب، 1993، ص 35).

2- ويعرّفه بعضهم بأنه: «عملية صيرورية تتكون من ثلاث مراحل متصلة اتصالاً وثيقاً؛ فالمرحلة الأولى تتكون نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي، ويتدخل وعي الفرد لوضعه في تشكيل المرحلة الثانية، أمّا المرحلة الثالثة فتنعكس على تصرفه كإنسان مغترب وفق الخيارات المتاحة أمامه» (جعفر، 1999، ص 5).

3- وتمتد جذور الاغتراب إلى أعماق التراث الإنساني؛ إذ يتردد صداها في الملاحم اليونانية، حيث صوّر هوميروس حالة مجتمعه في مرحلة الانتقال من التكوينات البدائية إلى الكيان السياسي (دولة المدينة)، وتتميّز مراحل الانتقال والتحوّل الاجتماعي بأنها مراحل تفكك اجتماعي تتصارع فيها قوى القديم الذي لم يضمحل بعد، مع قوى الجديد الذي لم يتثبت بعد. وهنا يسجل هوميروس بداية الوعي بما يصيب الإنسان في مجتمع عبودي تتصارع فيه الكيانات السياسية الصغيرة في حروب لا تكاد تتوقف حتى تبدأ من جديد (إسكندر، 1988، ص 3).

4- وعليه؛ يمكن القول إن مفهوم الاغتراب ينطبق بصورة دقيقة على هذه الدراسة؛ كون الاغتراب يجسد السلوك الإنساني في واقعه الحقيقي، فيعكس ما يشعر به الفرد من ضغوطات تترجم أفعاله على شكل قلق وخوف، وللخروج من ذلك الوضع الذي أصابه، يتمرّد على واقعه وظروفه، فإذا لم يستطع مواجهة هذا الواقع استسلم لشعور الحيرة العميقة. وبذلك يكون الاغتراب ظاهرة متصلة بحياة الإنسان تجسد شعوره وانتماءه للوطن الذي يعيش فيه؛ ولهذا تحوّل إلى قضية تحمل سمة مشتركة بين جميع المجتمعات، وهي سمة انفصالهم عن واقعهم وعالمهم.

مفهوم الحضارة

نتطرق في هذا المبحث إلى الحديث إيجازاً عن مفهوم الحضارة، ومن ثمّ تقديم نبذة عن الروائي وتجليات الرواية عبر فرعين؛ الفرع الأول: مفهوم الحضارة، والفرع الثاني: تجليات الرواية.

الفرع الأول: مفهوم الحضارة:

تشكل مصطلح الحضارة في وقت مبكر من القرن 8هـ / القرن 14م على يد ابن خلدون. ففي الاصطلاح الخلدوني: «الحضارة هي نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير». ويزيد ابن خلدون تعريفاً آخر للحضارة ويسميها «سر الله في ظهور العلم والصنائع»، كما أن الحضارة تصطبغ بذلك الطابع الاجتماعي العمراني (بن لحسن، 2021، ص 168). وهي: «الكل المركب الذي يجمع بداخله جميع المعتقدات، والقيم، والتقاليد، والقوانين، والمعلومات، والفنون، وأيّ العادات، أو السلوكيات، أو الإمكانات التي يمكن أن يحصل عليها فرد ما في مجتمع ما» (النعيمي، 2022، ص 605).

الفرع الثاني: تجليات الرواية:

وجد عزيز، المنفي العراقي، نفسه في العاصمة البريطانية لندن بعد صعابٍ ومشاقٍ كثيرة؛ حيث استطاع بمعية مجموعة من العراقيين الهاربين وبرفقة مُهرِّب، اجتياز أسلاك الحدود المكهربة، وعبور الأنهار العميقة، وسلوك مساراتٍ صعبة بين الجبال بعيدًا عن عيون حرس الحدود، ليصلوا في نهاية المطاف إلى لندن.

يقيم عزيز في فندق رخيص تابع لمؤسسة تُعنى باللاجئين والمشردين في حي (كنغز كروس) اللندني، حيث تقع على طرف منه محطة القطارات القادمة من الشمال. وهناك يقيم إلى جانب مجموعة من الأجانب والإنكليز المشاركين له في السكن، لينقل لنا الكاتب مقطعاً طولياً للمجتمع بكل تلاوينه الجغرافية والروحية والاجتماعية؛ فهناك العجوز العنصرية، والمدمن بفطنة حازمة من الرأسمالية المهيمنة على الحياة، والهندي الباحث عن عيش رغيد كدليل لفقره التاريخي، واللاجئ البوسني الهارب من الحرب، وشاب من أصول أفريقية يمتلك رأياً واضحاً لا يحيد عنه تجاه الاستعمار الأوروبي في أفريقيا وما خلفه من تبعات ثقافية واقتصادية وسياسية لا تزال تأثيراتها السلبية ساطعة لغاية اليوم. وينطلق عزيز نحو المدينة ليحد من القلق الذي يحاصره، ولمعرفة الأسرار التي تحتفظ بها كمكان عصي على الفهم للأجنبي.

تغرق الرواية في تفاصيل الحياة اللندنية اليومية التي يعيشها البطل، وهي يوميات تتوزع بين القلق والاكتشاف والرفض؛ إذ يشيّد البطل أسواراً عالية بينه وبين المجتمع، وهي صورة تبدو مألوفة لدى الكثير ممن اقتُلعوا من أرضهم عنوةً وظلوا يرنون إليها حاملين ما تبقّى لهم من ذكريات بين كفين يرتجفان برداً وهلعاً وغربة. وفي الفندق، يرتبط بعلاقة عشق مع سوزان (التي تمتهن الدعارة في الأزقة الخلفية من الحي)؛ فالمنفي عن وطنه ليس بعيداً روحياً عن المنفي في وطنه. عزيز -الهارب من وطنه بعد إلقاء القبض عليه وتعرّضه لجولات من التعذيب بسبب رفضه الانتماء إلى حزب السلطة- يواجه نكسةً روحيةً خطيرة بعدما يفقد إحساسه بالأمان؛ فهو محاصر بأجهزة السلطة ومخبريها، ويُمنع عليه التفكير خارج إطار المسموح، لذلك يقرر الهروب نحو منافٍ مجهولة المصير، تاركاً خلفه أمه وحفنةً من الذكريات التي ارتبطت بتفاصيل حياته ومسيرتها؛ من كتب ورسائل وأشرطة موسيقى وصور وملاعب طفولة ومرابع صبا، وأحلامٍ يصعب نسيانها.

يتأجج العشق بين عزيز وسوزان، ويتجاوز الكثير من الإشكاليات الثقافية والاجتماعية والمكانية، في علاقة تمثل نوعاً من الاغتراب بين مجتمعين وبلدين وثقافتين وشخصين. وتتعرض سوزان لحادث اعتداء من أحد الزبائن، فيدافع عنها عزيز بضراوة ليُصاب بطعنات سكين في جسده يرقد على إثرها في المستشفى. تزوره سوزان يومياً، وتروي له في كل زيارة حكاية على مدى أحد عشر يوماً، وهي بمثابة صورة مصغرة من حكايات ألف ليلة وليلة؛ فينتظرها على أحرّ من الجمر ليستمتع بالحكايات التي تعيد صياغة فهمه للواقع، وتحمل في طياتها رسائل عن الحياة والغربة والعلاقة بين بني البشر، ودوافع الكراهية، والدفاع عن الحق.

ثم تغيب (سوزان) عنه، ليكتشف أنها قد رحلت عن الحياة إثر جرعة زائدة من المخدرات التي كانت تتعاطاها، فيمر بأزمات حادة ويصاب بعدها بحالة من الهوس، لاسيما بعد مكالمة هاتفية تأتيه من العراق تحمل خبر وفاة والدته. يهيم في شوارع لندن ومحطات قطاراتها باحثاً عن إجابات عما حلّ به وبحياة الناس في وطنه البعيد؛ ابتداءً من الحروب والتهجير بمختلف أشكاله إلى خارج الحدود، مراراً بقتل الأبرياء في عمليات الأنفال والمقابر الجماعية التي اجتاحت أرض الوطن، والتعسف الذي طال العراقيين، وصولاً إلى الحصار الاقتصادي الذي عانى الشعب أمرّ ما فيه.

يعود (عزيز) إلى الفندق ليتابع عبر شاشات التلفزة ما شهده نهار التاسع من نيسان وما تعرّض له وطنه البعيد، ليقرر إحراق نفسه. تمتد النيران من غرفته لتصل إلى جميع زوايا الفندق وغرفه، ليتحول كل شيء إلى رماد؛ إنه الحريق الموازي لما شهده الوطن في ذلك النهار، كردّ فعل على الانهيار الذاتي الموازي للانهيار الذي تعرّض له شعبه العراقي على يد حاكم ظالم دفع به وبمستقبل شعبه إلى مصير يصعب التكهن بمآلاته، حاملاً في طياته جميع الاحتمالات، حتى أكثرها سوءاً.

المبحث الثاني: تجليات الاغتراب في رواية (غريب في لندن):

RJH Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website

المطلب الأول: الاغتراب الذاتي:

يُعدّ الاغتراب الذاتي من أكثر المصطلحات تداولاً وانتشاراً في الدراسات النقدية الحديثة، ومن أشد أنواع الغربة وطأة وتأثيراً في الذات؛ إذ يعني انفصال الذات عن مكنونها وطموحها وإرادتها، لتقع فريسة جلد الذات والعزلة، كأنها في حالة غياب، فلم تعد الذات على وعي بكيانها، حتى تشعر بأنها هي: «مصدر عذاب الغريب وبلواه، وهي قَدَره ومصيره الذي لا مفر منه، إنه لا يستطيع السيطرة على هذه الذات؛ لأنه في حالة خصام دائم معها، ولهذا فإننا نميل إلى القول بأن علاقة الغريب بذاته علاقة اغتراب، وهي تعني حالة إحساس الإنسان بأنه لا ينتمي إلى هذه الذات تماماً، بعدما يفقد هويته (ذاته) مثلما يشعر الإنسان أنه لا ينتمي إلى هذا الوطن» (حماد، 1995، ص 67). ونظراً لهذا الانسحاق الذاتي الذي يعانيه الغريب، فإن هويته تتحلّل، فيفقد ارتباطه بالمجتمع، ويمعن في استعذاب هذه العزلة، مؤكداً رغبته في تعذيب الذات وزيادة اغترابها بشكل مازوخي (زعرب، 2017، ص 108-109).

وفي سياق الثقافة العراقية المعاصرة، يبدو الاغتراب أقرب إلى شرح (إريك فروم) لمفهوم ماركس للاغتراب في قوله: «الاغتراب لدى ماركس هو أن الإنسان لا يختبر نفسه ككائن فاعل في إدراكه العالم، بل إن ما يختبره هو أنّ (العالم) -الطبيعة والأخرين وذاته نفسها- تظل غريبة عنه، فهي تنتصب فوقه وضدَّه كأشياء، على الرغم من أنها من صنعه. الاغتراب هو جوهرياً معاناة العالم والذات سلبياً واستسلامياً منفصلة عن الموضوع» (عجام، 2024، ص 9).

وعند الوقوف على الاغتراب النفسي بوصفه: «ظاهرة اجتماعية نفسية، سوية ومقبولة حيناً، ومريضة معوقة حيناً آخر، ولا تتحدد بمجتمع بغض النظر عن النظم والأيديولوجيات والمستوى الاقتصادي والتقدم التكنولوجي؛ كما إنها تعد أزمة للإنسان المعاصر ومعاناته وصراعاته التي تسير ببطء إلى عدم شعور الإنسان بالأمن والطمأنينة حيال واقع الحياة، والنظر إليها وكأنها غريبة» (شاخت، 1980، ص 20)؛ يمكن التمييز بين الاغتراب النفسي والاغتراب الذاتي من خلال طبيعة الانفصال الذي يشعر به الإنسان؛ فالاغتراب النفسي يتمثل في شعور الفرد بالابتعاد عن عالمه النفسي الداخلي، كأن تصبح مشاعره وأفكاره غريبة عنه، أو يعجز عن فهم ذاته والتفاعل مع أحاسيسه، فيشعر بعدم الانسجام مع نفسه من الداخل. وهذا النوع من الاغتراب لم نجده بصورة واضحة في شخصية بطل الرواية (عزيز)، إذ لا يبدو منفصلاً عن مشاعره أو عاجزاً عن إدراك ذاته.

أمّا الاغتراب الذاتي فهو أعمق وأوسع، لأنه يرتبط بابتعاد الإنسان عن ذاته الحقيقية وهويته وقيمه ورغباته، وشعوره بأنه يعيش حياة لا تعبّر عنه ولا تنسجم مع ما يريده أو يؤمن به. ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن اغتراب عزيز يتخذ طابعاً ذاتياً؛ فهو لا يشعر بالغربة عن نفسه ومشاعره بقدر ما يشعر بالغربة عن الحياة التي يعيشها والبيئة التي وجد نفسه فيها، إذ يعيش في بلاد لا تشبهه ولا تنسجم مع هويته وانتمائه، الأمر الذي يجعله يشعر بأن واقعه المفروض عليه يبعده عن ذاته الحقيقية. وبالتالي، فإن اغتراب عزيز يمكن تصنيفه ضمن الاغتراب الذاتي؛ لأنه نابع من عدم التوافق بين ذاته وما يحيط بها، وبين ما يعيشه فعلياً وما يرغب في أن يعيشه، مما يجعله يشعر بأنه يعيش حياة لا تمثله ولا تعبّر عن حقيقته.

وتتجلى ملامح هذا الاغتراب في استذكار (عزيز سليم) -بطل الرواية- الأيام الأولى له في لندن وأصدقائه الذين رحلوا، ويسرد ذلك في حديثه مع نفسه حيث: «يتذكر ملياً حين وضع خطواته الأولى في لندن، ارتجف واقشعر بدنه وأحس بالخشوع في كيانه، سمع صوت الموتى وهو ينادي: يا عزيز عش واقبض على أيامك المتبقية... تذكّر أصدقاءه الموتى على جبهات القتال بجروحهم البليغة، تذكّر الحروب والجرحى والجثث المتناثرة ورايات الحزن المرفوعة على هامات البيوت، صرّ على أسنانه وقال: لا.. لن يطفو الحزن على سطح روحي ثانية بعدما أحرقت كل سفني وانتظرت طويلاً على حواف الزوال» (حيدر، 2023، ص 12-14).

انفتحت الرواية عبر نصوصها الأولى على راوٍ يروي لنا الأحداث باستخدام ضمير الغائب (هو)، وظيفته أن يروي أحداثاً تثير الخوف في نفوسنا؛ لشخص يتحدث عن حياته التي مرّت بمنعطفات تركت في روحه الأسى والضياع، فحاول إخبارنا عنها ليتمكن من إنهاء عذابه المتكرر الذي تزداد أحداثه قسوة يوماً بعد آخر وهو في غربته، لذلك نجد هيمنة الأفعال المضارعة في نصوص الرواية، منها: «يتذكر، ينادي، يناديه، يردد، يقهر، ينتصر، يغلبُني، يقودُني» (حيدر، 2023، ص 6-7). وأراد الروائي من ذلك عرض مخاوف شخصية البطل (عزيز سليم) من الحاضر، واستمرار شعوره بشتى الأحاسيس التي دلّت على سيطرة الأفكار السلبية عليه، وضياع أحلامه وهو في المنفى بعيداً عن بلده العراق.

ويواصل عزيز ارتباطه بذاته محدثاً إياها: «ليلي مثقل بالهواجس ونهاري يأتي على أجنحة الزوال»، ويواصل حديثه الصامت مع ذاته: «يغلبني الحزن حينما أعجز في الصباح عن استذكار حلم الليلة الماضية.. ثم يردد بصوت أعلى من الصمت وأقل من اللهاث: الحب، نعم الحب هو الطريق الوحيد الذي بإمكانه أن يقهر زمني وينتصر على هواجسي ويقودني إلى مغامرة جديدة، أيها الحب أنا بانتظارك» (حيدر، 2023، ص 15-16). نجد الروائي يلجأ هنا إلى استعمال ياء المتكلم في الألفاظ: (ليلي، نهاري، يغلبُني،

زمني، هواجسي، يقودني)، فهي ضمير متصل يدلُ على الملكية الخاصة به، بمعنى: (الليل الذي يخصني، والنهار الذي يخصني، وهواجسي التي تخصني، ويغلبُني أنا، وزمني أنا)، لذلك فهو مرتبط بالضمير الأنوي (أنا)، إلا أنه ليس منفصلاً، بل متصل مضاف إلى الاسم للدلالة على صفة التملك.

وأحياناً فإنّ التواصل مع الذات يحتاج إلى نفسٍ قد ضاقت بها كل السبل؛ فبعد أن تعرّض عزيز لكافة أنواع الظلم في حياته بالعراق، اتخذ من الحزن ملجأً له تارة، ومن الصمت ملاذاً حارساً تارة أخرى؛ لأنه تحدّث بما فيه الكفاية، فلم يعد يستطيع التعبير عن مآسيه أكثر من ذلك، فاتخذ من الصمت وسيلة لكي يقود شعوره إلى مكان آمن لا يصاب فيه بالضياع الذي كان يشعر به دائماً.

ولعل أول ما نلاحظه في النص هو غلبة ضمير (الأنا) المنفصل والمتصل، وكذلك عندما غاب الضمير المعبر عن السلطة بوصفها المسؤول عن العذاب الذي حلّ ببطل الرواية؛ إذ تظهر الضمائر في مثل: (أنا، صرتُ، فقدتُ). وهذه التقنية قائمة على التداعي الحر وتنتمي إلى حقل الفقد؛ حيث تتخيل الذات أنها تتحدث مع ذوات أخرى، فتُجذّر عمق الشعور بالغربة الذاتية عبر الألفاظ التي تتصل بياء المتكلم -مثل: جذري، عمتي، تختبئي- حتى نكتشف في النهاية أنها تتحدث مع ذاتها بعدما أدركت عدم جدوى الاتصال بالآخرين. وهذا هو الاغتراب الذاتي الذي يُعدّ من أقسى أنواع الاغتراب (سعيد، 1989، ص 379)؛ إذ يأتي نتيجة للانفصال الاجتماعي عن البيئة، فالإنسان في نهاية المطاف ابن بيئته، وحين ينفصل عنها وعن مجتمعه يصاب بالاغتراب الذاتي ويقع في مطباته.

ويُعدّ الاغتراب الذاتي من أخطر الأزمات التي تحاصر المنفي والمهاجر، لاسيما إثر تجذّر الإحباطات والهزائم العامة وتأثيرها المباشر في الذات بمعناها الفردي. إذ يبدأ الاغتراب الذاتي بالتشويش الفكري وضبابية الموقف والرؤية، لينتهي بالانعزال والانسحاب والتقوقع الذاتي، لاسيما عند ذوي الوعي وأصحاب المشاعر الفياضة. وينتمي عزيز إلى هذه الشريحة؛ فهو القارئ الجيد والمتابع المتميز والمطلع والمثقف والخريج الجامعي، ولهذا كان من السهل أن تقع شخصية بهذه السمات في براثن الاغتراب الذاتي.

ولابد من القول إن الحياة التي عاشها بطل الرواية عزيز في العراق أثّرت بشكل مباشر في شخصيته، ابتداءً من القمع الديكتاتوري والحروب (الداخلية والخارجية) والاعتقالات والتعسف والحصار الاقتصادي، مما أسهم في تشكيل مقومات شخصيته ووعيه. ولعل الإحباط والعجز عن اجتراح الحلول وفقدان المعنى الحقيقي للحياة هي من أهم نتائج الاغتراب الذاتي، مما جعل الشخصية متشائمة وحزينة، لتنتهي بنهاية مأساوية؛ تمثلت بافتعال عزيز حريقاً في الفندق ليحترق هو فيه أيضاً.

وغالباً ما يترتب على الاغتراب الذاتي نشوء شخصية مهشمة وخالية من شغف الحياة، ولهذا أظهر عزيز ردة فعل رافضة للواقع الجديد الذي فُرض عليه في محاولة لاستعادة الذات والابتعاد عن اغترابها، لكنه فشل ولجأ إلى العزلة، ليعلن في ختام الرواية عن تمرده الذاتي وانتحاره بإحراق نفسه عبر إحراق الفندق الذي يقيم فيه، وهو موقف صريح لرفض الواقع والحفاظ على ما تبقى من الذات في اغترابها.

نستشف ذلك عبر هذه الشواهد التي يشرح فيها هواجس نفسه المعذبة: «أنا غريب وزائد في هذه المدينة، أي قدر حملني إلى هذه المدينة، أي قدر بعثرتني طرقاتها وأبنيتها ومحطاتها، إنها مدينة سادية تتلذذ بعذابات الغرباء، لا تمنح نفسها بسهولة»، واصل عزيز هذيانه وهو يخطو في الطرقات المعتمة التي تلتف كثعبان حول محطة القطارات... تذكر والدته تحاول إيقاظه لئلا يتأخر عن محاضرات الجامعة، كان يجيب بإرهاق وهو يفتح عينيه جاهداً:

لا أستطيع، النعاس يثقل جفوني.

لكنها كانت تردد بمودة:

انهض يا ولدي، سيكون ذلك الرقاد الطويل بانتظارنا وسنشبع نوماً هادئاً (حيدر، 2023، ص 47-50).

تذكر الأيام البسيطة قبل أن يترك أرضه الحقيقية ويغادر إلى بلاد لا تربطه بها أي صلة، فيحاول أن يتذكر كيف كانت والدته تنادي عليه ليستيقظ من النوم ويذهب إلى الجامعة؛ فهذا الحنين إلى الماضي دليل على أن روحه رافضة للواقع الجديد الذي طُوّق به من دون أن يرتبط معه بأي علاقة، مما يزيد عذابه يوماً بعد آخر. لذلك نرى روحه في عذاب مستمر، فيقول الروائي على لسان البطل: «روحي هشة ولا طاقة لي على القُبل التي تسري كتيار مضطرب في تجاويف القلب، أنا المرتبك أبداً.. أنا المتعثر بالغيم المتبدد، الهوة هي روحي، أقبع في قاعها، وكل السلالم لم تستطع أن تنتشلني من سقوطي المدوي. ولكن من الذي دفعني إلى قاعها المقفر؟ إنه وحش الجوع الذي يحاصرني بلا هوادة، تضاعفت السلالم وما زلت في قاع الهوة.. في القاع تماماً» (حيدر، 2023، ص 116). ويردد مع نفسه قائلاً: «كلما مرت الأيام أحسست بسحر تلك الحكايات بعدما استقرت عميقاً في داخلي. منحت هذه

RJH Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website

الحكايات جراحي العميقة والغائرة الهدوء، لكن سرعان ما تنكأ وتنزف من جديد، الحكايات هي الجرح.. وهي البلسم، يا لهذه الحيرة!» (حيدر، 2023، ص 124).

وفي الصفحات الأخيرة من الرواية، يحيلنا إلى هذا المشهد الشعوري المحزن: «كنت تواقاً لأن تبوح لي الأيام بكل ما انتظرت من أجله، لكنها كانت شحيحة. أتدعو لك أن تولد في زمن مهم، هكذا يشتم الصينيون أعداءهم.. وها أنا ولدت وأحيا في أزمنة مهمة. إنها الشتيمة التي تحاصرني وتطبق بكفيها على أنفاسي» (حيدر، 2023، ص 158).

نجد عبر هذه النصوص أن بطل الرواية قد أصابه نوع من الإحباط الشديد، وشعر بسقوطه من أعلى قمة جبل مرتفع، لا يستطيع النهوض أبداً، ولا يعرف ماذا تخبئ له الأيام وماذا ينتظره بعد، سوى الذكريات الحزينة جداً التي مرّت في حياته ولا تزال مستمرة؛ فهو يعيش دوماً صراعاً داخلياً لربط ماضيه بالواقع الجديد في حياته.

ولابد من دوافع وأسباب عدة لاختيار اسم (عزيز سليم) لبطل الرواية؛ لعل من أهمها أنه ليس للاسم أي مدلول أو انتماء طائفي أو قومي أو مذهبي، فهو ينتمي للعراق... كل العراق. وهذا ما شهده العراقيون فعلاً على مختلف منابتهم وقومياتهم ودياناتهم وطوائفهم ممن عانوا من عسف النظام وقمعه، ولهذا يشير الاسم إلى كل عراقي مهما اختلفت هويته الفرعية.

وعند ربط الحضارة بالاغتراب الذاتي، يتضح لنا أن الروائي حاول أن يجد طريقة آمنة لتفسير موقف عزيز سليم؛ إذ لم يستطع المجتمع الجديد تقريب ذاته القديمة من ذاته الجديدة، ولعله بذلك يحيي حضارة دامت أكثر من 7000 سنة، وهي حضارة السومريين والبابليين والآشوريين. وعزيز الذي عزز قناعته بتلك الحضارة العريقة، فشل -في رأيي- في تغيير ذاته لتتوافق مع بيئته الجديدة التي حاولت إيجاد نفسها في لندن حيث يقيم؛ فلم تستطع هذه الذات التعايش مع المدينة الجديدة، لذلك عاشت معذبة إلى اليوم الذي مات فيه محترقاً في الفندق بمفرده. نستشف ذلك عبر هذه الشواهد التي يشرح فيها هواجس نفسه المعذبة: «أنا غريب وزائد في هذه المدينة، أي قدر حملني إلى هذه المدينة، أي قدر بعثرتني طرقاتها وأبنيتها ومحطاتها، إنها مدينة سادية تتلذذ بعذابات الغرباء، لا تمنح نفسها بسهولة»، واصل عزيز هذيانه وهو يخطو في الطرقات المعتمة التي تلتف كثعبان حول محطة القطارات... تذكر والدته تحاول إيقاظه لئلا يتأخر عن محاضرات الجامعة، كان يجيب بإرهاق وهو يفتح عينيه جاهداً:

- لا أستطيع، النعاس يثقل جفوني.
- لكنها كانت تردد بمودة:
- انهض يا ولدي، سيكون ذلك الرقاد الطويل بانتظارنا وسنشبع نوماً هادئاً (حيدر، 2023، ص 47-50).

تذكر الأيام البسيطة قبل أن يترك أرضه الحقيقية ويغادر إلى بلاد لا تربطه بها أي صلة، فيحاول أن يتذكر كيف كانت والدته تنادي عليه ليستيقظ من النوم ويذهب إلى الجامعة؛ فهذا الحنين إلى الماضي دليل على أن روحه رافضة للواقع الجديد الذي طُوّق به من دون أن يرتبط معه بأي علاقة، مما يزيد عذابه يوماً بعد آخر. لذلك نرى روحه في عذاب مستمر، فيقول الروائي على لسان البطل: «روحي هشة ولا طاقة لي على القُبل التي تسري كتيار مضطرب في تجاويف القلب، أنا المرتبك أبداً.. أنا المتعثر بالغيم المتبدد، الهوة هي روحي، أقبع في قاعها، وكل السلالم لم تستطع أن تنتشلني من سقوطي المدوي. ولكن من الذي دفعني إلى قاعها المقفر؟ إنه وحش الجوع الذي يحاصرني بلا هوادة، تضاعفت السلالم وما زلت في قاع الهوة.. في القاع تماماً» (حيدر، 2023، ص 116). ويردد مع نفسه قائلاً: «كلما مرت الأيام أحسست بسحر تلك الحكايات بعدما استقرت عميقاً في داخلي. منحت هذه الحكايات جراحي العميقة والغائرة الهدوء، لكن سرعان ما تنكأ وتنزف من جديد، الحكايات هي الجرح.. وهي البلسم، يا لهذه الحيرة!» (حيدر، 2023، ص 124).

المطلب الثاني: الاغتراب العاطفي

تُعدّ (الأنا) من الطبائع التي تتهدّدها العزلة دائماً، ولكنها تعمل باستمرار -عبر سعي متواصل- لتنمية قدرتها على مواجهتها، شريطة أن تحافظ على خصائصها وحريتها من جهة، وأن (تعلو على نفسها) عبر الاتحاد بـ (أنا أخرى) تفهمها فهماً صادقاً من جهة أخرى؛ وبخلاف ذلك فإنّ الانعطاف نحو «الآخر السلبي» سيكون سبباً في تعميق العزلة. ولذلك ثمة وسائل يلجأ إليها الإنسان للتغلب على عزلته، منها: الحب، والصداقة، والفن؛ فالحب وفق هذا التوصيف منهج تعويضي يعتمده المغترب للخروج من عزلته، بيد أنّ إخفاقه فيه سيقوده إلى اغتراب عاطفي يُضاف إلى أشكال اغترابه الأخرى (جعفر، 1999، ص 17).

RJH Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website

تبدأ رحلة الاغتراب العاطفي لدى «عزيز سليم» عندما يتكشّف له واقع «سوزان» بوصفها لاجئة روحية في بلدها الأصلي. وقد يتبادر إلى أذهان البعض مفهوم خاطئ للغربة يحصرها في هجرة الإنسان إلى بلد آخر بعيداً عن أهله وأصحابه فحسب؛ بيد أنّ الموقف يتجاوز ذلك ليغدو غربة في المشاعر والانتماء، وهو الموقف الذي تكرر مع عزيز سليم؛ إذ نجد في نصوص الرواية تذبذباً في شعوره تجاه حبيبته سوزان، بين إحساسه بأنها مختلفة عنه تماماً، وبين شعوره أحياناً أخرى بأنها من يودّ الفؤاد أن يعشقها وتتمناها النفس دوماً. ولهذا يشعر بالنقص والعجز عن إقامة علاقات اجتماعية متينة، مما ينتج شخصية سلبية في محيطها.

وتتعدد صور هذا الاغتراب في الرواية؛ ومنها رغبة سوزان في الابتعاد عن المهنة التي فرضها المجتمع عليها، وهي المهنة المرفوضة في الوقت نفسه من المجتمع الذي تعيش فيه. ونرى في بداية تعارفهما عبر سرد الروائي: «تقدمت سوزان نحو طاولتهما وسألتهما: هل لي أن أشارككما الطاولة؟ شعر بلسعة سوزان وهي تحاذيه، حاول أن يخفي قلقه لكنه مضغ هزيمته بصمت، انكب مخذولاً على بقايا فطوره... شعرت سوزان بالغمامة التي ارتسمت فوقه. اقتربت منه وجلست بجواره، دويّ مكتوم وصمت مخنوق يلف روحه من أقصاها إلى أقصاها، لا يبصر أمامه سوى أطياف معتمة متداخلة وصور مضببة، وانطلقت جملة محملة بالأنين من فمه سمعت أحشاؤه صداها: لماذا تمزقين روحي؟ تستدرجينني إلى بركانك.. وأنا غير مستعد للاحتراق» (حيدر، 2023، ص 17، 42-43)؛ وهو سؤال يحمل في طياته مرارة العذاب والعتاب.

يعرض لنا كاتب الرواية تفاصيل اللقاء الأول بسوزان الجميلة، وهي تفاصيل لا يدركها إلا المحبون؛ لأن الروح حين تبتهج بشخص تشتهي اللقاء به دائماً وتتعدى حدود الحرية المفروضة مجتمعياً، فتختلط هنا مفهوم الحرية في المجتمع الغربي الذي فُرض عليه العيش فيه مع التقاليد الراسخة في ذاكرته الشرقية التي ترى المرأة ملكاً لرجل واحد (زوجها)، على عكس سوزان التي كانت في كل ليلة ملكاً لرجل من رجال مدينتها ممن ينهشون جسدها لقاء حفنة من المال. ليعيش عزيز بذلك مجبراً على تقبل عادات لم يعتد عليها؛ فتغدو سوزان منفية في أرضها ومجبرة على عملها، وهو المنفي من أرضه وغير القادر على تقبل هذا الواقع، فاختلط الشعوران معاً لينتجا حباً مفعماً بالعذاب؛ حب فيه تعويض عن فقدان إحساس المرء بذاته أو بمحيطه. فعندما يفقد المرء الشعور بالأمان يبحث عن من يسد هذا الفراغ، ليجد في سوزان ملاذاً للحب يطفئ شعلته المتوهجة داخله، علّه يخفف من ألم الغربة الموحشة التي لا تفارقه.

إنّ «سوزان» -الشابة الإنكليزية التي تمتهن الدعارة والآتية من إحدى مدن شمال إنكلترا- المنفية في أرضها، تجمعها مع «عزيز» -المنفي من أرضه- علاقة عشق ملتهبة؛ فالمنفيون من أرضهم وفي أرضهم غالباً ما يلتقون. وفي تفاصيل تلك العلاقة يبرز الاغتراب العاطفي جلياً بينهما: عزيز الشرقي المحمّل بقيم مجتمعه وتقاليده، وسوزان الهاربة من تقاليد مجتمعها؛ يلتقيان في مناطق الوجع ويفترقان في البناء الثقافي. بيد أنّ جذور عزيز الحضارية كانت هي الأقوى ليقود ذلك الاغتراب لصالحه، إذ يشبه سوزان بشهرزاد، ويدفعها لتروي له حكايات مع كل زيارة له وهو يرقد على سرير المستشفى، منتظراً حكايتها على أحر من الجمر.

وعلى الرغم من التوافق الجسدي بين العاشقين، إلا أنّ ثمة اغتراباً عاطفياً وروحيّاً ظلّ قائماً بينهما؛ إنه النزاع الحضاري الذي يحمل بين طياته صور مجتمعين وتاريخين ومنبتين وسلوكين متناقضين يصعب اندماجهما بسهولة. فالعلاقة العاطفية تستند بالأساس إلى فهم باطن المجتمع وجوهره وطبيعة علاقاته، ولو على صعيد فردي، وهنا يكمن الاغتراب ويتسع مع مرور الوقت ليتشكل شرخ كبير من الصعب رأبه.

وعند التساؤل: هل بادلت سوزان عزيزاً الحب فعلاً؟ يجيب المسار السردي بالنعم، وبادلها عزيز الحب ذاته، ولكن هل بإمكان تلك العلاقة أن تثمر في أرض غريبة؟ تؤكد أحداث الرواية أنّ العلاقة لا يمكن لها أن تتواصل في بيئة غير ملائمة، لاسيما وأنّ أسباب الاغتراب العاطفي تبدو واضحة المعالم: «أومأت سوزان برأسها ورفعت يدها، ثمة خواتم في أصابع تنتهي بأظافر مدببة مطلية بلون أحمر فاقع، عينان زرقاوان عميقتان وشعر أصفر منسدل على الكتفين، وجرأة أقرب إلى الوقاحة، قميص وردي يكشف انثناء الجسد وبنطال أسود يلتف حول فخذين مكتنزين» (حيدر، 2023، ص 7).

وتتجلى صدمته في لحظة اكتشافه لحقيقة عملها الليلي: «وهو يسير فجأة كلمحة برق تراءت له سوزان من بعيد وهي تقف مع الفتيات على الرصيف.. كلا.. لا يمكن أن تكون هي، بكى من الألم والعذاب والوحشة التي طوقته، صرخ بقوة: لماذا يا سوزان؟ يتابع المشهد بأكمله وهو على رصيف الضفة الأخرى، تفصله عن سوزان أحزان الكون كله. ثمة رجل يتقدم نحوها.. يقف ملاصقاً لها ويتحدث إليها خلسة، يبدو أنه يساومها حول الثمن، حاول أن يستعيد ما رآه، وأن يجمع شظاياه المتناثرة، غير أنّ الحادث الملتبس بين الحقيقة والوهم جعل عزيزاً يتساءل وهو يوجه حديثه نحو سوزان البعيدة: لماذا يا سوزان تكونين الخاسرة على الدوام

RJH Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website

في لعبة موجعة ورخيصة؟ ما الذي يجري على هذه الأرض بحق السماء.. تأمل عزيز حبيبته سوزان وهي تخطو وحيدة على الرصيف بانتظار زبون ما» (حيدر، 2023، ص 48-49).

يدفع هذا المشهد عزيزاً لتشبيه سوزان بعشتار؛ إذ يقول: «أنتِ كاهنة المعبد في العالم القديم، تلك التي كانت تخدم الرب عبر جسدها وتحظى بتقدير يصل حدود القداسة، إذ تتصدر المكان في احتفالات معابد بابل. عشتار إحدى تلك البغايا، بعدما تمنح جسدها للعشاق تطلب من الرب أن ينزل عليهم لعناته ويحيق بهم غضبه، ثورتها لا تهدأ إلا إذا انتقمت من عشاقها. أسباسيا عشيقة بيريكليس كانت تدير ديمقراطية أثينا عبر جسدها، هل سمعتِ بها؟» (حيدر، 2023، ص 93). وقد استلهم الروائي ذلك من أسطورة عشتار: «التي تعددت فيها الصفات والخصائص التي خلعها سكان وادي الرافدين على إنانا/عشتار، فقد بقي الحب والرغبة الجسدية من أبرز خصائصها على مر العصور في المصادر السومرية والبابلية، إذ جسّد العراقيون القدماء في الآلهة إنانا/عشتار جميع خصائل المرأة: أنوثتها، وطباعها، وعاداتها؛ فتتجسد تارة في صورة امرأة مستضعفة تقع فريسة سهلة بيد الرجل، وتتجسد تارة أخرى في دور فتاة حائرة بين حبيبين يتنافسان على حبها، وفي أسطورة ثالثة بدور فتاة أحبت من تفانى في عشقها لكنها تتنكر له في آخر لحظة فتكون سبباً في مأساته» (علي، 1999، ص 61).

عبر هذه المشاهد، يربط الروائي بين سوزان وعشتار -الآلهة العراقية القديمة- التي تمتلك صفات تشبه حالة سوزان من حيث الجمال الشكلي الذي يجعلها محط الأنظار، واضطرارها لممارسة هذا العمل. إنّ محاولة ربط الاغتراب العاطفي هنا بحضارة الغرب تبدو جليّة؛ لأن عزيز عاش ينتمي لحضارة مختلفة تماماً عن بيئة سوزان، ولأنّ التوفيق بين الحضارتين كان معقداً، فقد أخفق العاشقان في بناء جسر يتجاوز هذه الفجوة، لتنتهي القصة بنهاية مأساوية أدت إلى موت سوزان يعقبه انتحار عزيز، ليكون الضحيتين لواقع حضاري ومجتمعي لم يستوعب حجم العاطفة بينهما. وبما أن عشتار ترمز لآلهة الحب والتضحية والحرب، فقد أظهر الروائي أنّ تلاقح الثقافات بين الشرق والغرب والطبائع المتبادلة بينهما يفتقر أحياناً للنقطة المشتركة.

ربما وجد عزيز في سوزان منفذاً لنسيان المآسي التي ألمّت به في وطنه، فأراد تقريب الصورة عبر تشبيهها بعشتار ارتباطاً بجدلية الحب والحرب والألم، مستعرضاً عمق هذا العشق بقوله: «كانت سوزان النجمة الأولى التي انحنت على مسائي، والدمعة الأولى التي رقدت على مقلتي، أناديها: سوزان.... سوزان، تعالي أنقذيني من وهم التنهيدات، لكنها تمنعت وتناثرت في العتمة المستباحة. عشق موشوم بالدهشة، ينسج خيبتي على منوال الألم، أنا حدس الرغبة، أنا أشياء لا تتسق، أرقد على وسادة أحلامي، عشق مشتهى أتى متأخراً، توغلين في هزائمي، أنا اللاجئ الهارب من عذابي، تدونين على شغاف قلبي: أحبك. في راحة يدها تغفو النجوم، من بين رموشها ينسل الندى، أنا أموت اختناقاً، ولكن كيف يتسنى لها أن توقع رغبتي في شباك عشقها.. أنا المختنق بالأوهام والأحلام» (حيدر، 2023، ص 69).

وبما أنّ النداء يؤدي وظيفة التواصل بين البشر للحوار أو لأغراض بلاغية تُفهم من السياق، فإنّ افتتاح الكلام بالنداء دليل على العناية والاهتمام، ومعاني القرب من المنادى أدعى لاستجابته وتأمله لما يحويه الخطاب من قيم ومشاعر (دهمان، 2020، ص 7). ومع أنّ مشاعر الحب لا تحتاج وسائل معقدة للوصول إلى القلب، نجد عزيزاً يربط قلبه بعشق امرأة ترى فيه ملاذها الوحيد من مجتمع قسا عليها؛ فناداها لعلها تشعر به وتنقذه من وحدته الموحشة، بعد أن فقد عشقه الأول (الوطن). فحاور حبيبته الضائعة في عالمها، وهو الضائع في عالمه، حتى انتهى به الأمر إلى الاختناق في أوهامه والرحيل النهائي.

إنّ عزيزاً عاش هذه الحالة وهو يخوض رحلة البحث عن هويته الإنسانية، ولذلك تمثلت الثيمة الجوهرية في شخصيته بالتيه والضيعة، وهو ما انعكس على حالته النفسية والعاطفية؛ إذ عاش في دوامة من الأسئلة التي عمقت اغترابه العاطفي من دون الوصول إلى إجابة تنتشله من هذا الضياع. ولم يقف هذا التيه عند حدود الجانب العاطفي والنفسي، بل امتد ليتجسد في علاقته بالمكان؛ حيث أسهمت مدينة لندن -بوصفها مدينة كوزموبوليتية صاخبة- في تعميق شعوره بالاغتراب، لينتقل اغترابه من مستواه العاطفي إلى مستواه المكاني.

المطلب الثالث: الاغتراب المكاني

تمتلك الشخصيات أحاسيس متناقضة تجاه المكان؛ فهي تشعر بالألفة تجاه مكان ما، وبالعداوة تجاه مكان آخر. و«الانتماء إلى المكان هو الذي يحدد طبيعة العلاقة به من ناحية الاغتراب والألفة؛ فالمكان الأصلي هو المكان المحوري بالنسبة للشخصية

RJH Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website

إذا تحققت فيه مطالبها ورغباتها وأوجدها في الجانب الحيوي، وفي حالة افتقار هذا الجانب تبحث الشخصية عنه في مكان آخر، ومن ثم يحصل الانفصال عن المكان المركزي والاتصال بالمحيط» (يقطين، 1997، ص 92).

وتتمثل شواهد الاغتراب المكاني عبر ما يرويه الروائي، إذ تبدأ فيه حقيقة تجربة الإنسان؛ فالمرء بطبيعته يميل إلى المكان الذي نشأ فيه ورُبّي بين جنباته؛ إذ يرتبط به منذ صغره ويجد فيه الأمان والراحة. ومهما ابتعد عنه، فإنّ الحنين والشوق ينبعثان من ذاكرة البدايات، يوم فتح عينيه على ذلك الفضاء الأول وتلقى فيه تعليمه؛ ففيه قضى طفولته وأجمل أيامه، وبين أهله وأصدقائه تشكلت ذكرياته التي تظل راسخة رغم تعاقب السنين. ولهذا يظل قلبه معلقاً بذلكم المكان الأول، شاخصاً إلى بيوته وشوارعه ووجوه من أحبهم، ليبقى هذا الفضاء الأول جزءاً أصيلاً من كيانه وذكرياته لا يمحوه تبدل الأيام ولا تغير الأماكن.

ويتبدى اشتياق «عزيز» إلى العراق واغترابه المكاني جلياً في العاصمة البريطانية (لندن) التي أُجبر على العيش فيها والتأقلم مع ظروفها القاسية؛ تلك الظروف التي قسرته على قبول هذه الحياة. وتماشياً مع هذا الشعور، يصف الروائي لندن بأنها: «مدينة مطوية على المفاجآت، كل شيء على سطحها يبدو غريباً. أجل، مدينة غرائبية عصية على الفهم والامتلاك. كل من يقطن على سطحها يتوق إلى الغوص في أعماق قلبها: أحياء سكنية متلاصقة، محطات القطارات، وتنخر جوفها خطوط قطارات الأنفاق. الأسواق متخمة بالمتبضعين الذين يقتنون السلع بحمى تفوق الوصف. الإنكليز شعب في غاية الكياسة والتهذيب، ثمة قواعد وأصول تحدد العلاقة مع الآخر، لا يُسمح لأحد بتجاوز حدود الشخص الآخر. الشمس هنا خجولة، سرعان ما تتوارى بين الغيوم الداكنة بعدما تسعد الجميع بإشراقة سريعة. هذه المدينة مسكونة بالأضداد، تغلفها قيم وأعراف أرستقراطية على الرغم من أنها ابتدعت موجة (البانكس). لكنها رائدة المعاصرة في الفنون والعمارة والموسيقى والسياسة، مدينة محافظة وعبثية، متزنة ومجنونة وعلمانية. في هذه المدينة يحيا عزيز حاملاً مكانه الأول المسبي على كتفيه. إذن، كيف له أن يتصالح مع لندن.. مع نهر التيمز، وتمثال إله الحب في ميدان بيكاديلي، مع رنات ساعة بيغ بن، وسناجب سانت جيمس بارك، ومكتبات شارع تشارلنغ كروس، والجسور القديمة والبنايات والمتاحف الموزعة في كل الزوايا.. شوارع لندن مكتظة بالأجساد وأنفاس البشر، وهو الضائع المحمل بالخوف والحذر» (حيدر، 2023، ص 98-99).

يؤدي المكان دوراً محورياً في تشكيل حياة الفرد وترسيخ كيانه وهويته؛ «لأنه أشد التصاقاً بحياته وأعمق تجاذباً مع ذاته، وعليه فإنّ علاقة الذات بالآخر -سواء أكانت انفصالاً أم اتصالاً- تكون تبعاً لما يعززه المكان وما يحمله من دلالات نفسية واجتماعية» (عقاق، 2001، ص 268-269). ويظهر أنّ انبهار عزيز بمظاهر العمران والمدنية في لندن لم يحدّ من حنينه إلى وطنه؛ فالمدينة وإن كانت مغرية من نواحيها كافة بالنسبة له، ومثيرة لشغفه في البداية لاكتشاف عوالمها والتصالح معها عبر التجوّل بين تماثيلها ومكتباتها وجسورها ومتاحفها التي يفتقدها في وطنه، إلا أنّ محاولته للارتباط بها كمكان جديد باءت بالتعثر؛ إذ ظل شعور الخوف والوحدة والحذر يطوقه، ولم ينجح في الفكاك من هذا الحصار النفسي رغم كل جماليات الفضاء الجديد.

وتتجلى حيرة المكان في قوله: «كنغز كروس بناء فكتوري مشيد بالآجر الأحمر، محطة القطارات الآتية من الشمال، ونقطة انطلاق قطار (يوروستار) نحو أوروبا تحت مياه بحر المانش. المحطة ساحة عبث عزيز وضياعه، يزاحم المسافرين في خطواتهم حيث يمضون مسرعين نحو أرصفة قطاراتهم، أو أولئك القادمين من سفرهم البعيد، ليبقى وحيداً يتطلع بذهول إلى لوحة حركة القطارات. تخرج المحطة من صمتها فجر كل يوم وهي تستقبل الوجوه العابرة وصدور النساء الرجراجة وسيقان الشابات البيضاء. في المساء تغرق بناية المحطة في وهج الأنوار بعدما تبدأ عجلة العتمة تسير في مسارها؛ ينسحب ضوء النهار وتبدو المحطة وكأنها تهبط في إيقاع الصمت المسور بالضوضاء. الساعة التي تعتلي برجاً في مقدمة واجهتها لا تعرف الزمن. تلتف حول المحطة أزقة معتمة، تستدرجك بدعوة مكشوفة» (حيدر، 2023، ص 80-81).

لقد كانت العزلة والوحدة المثيرين الأساسيين اللذين دفعا عزيزاً إلى مناجاة الكتل العمرانية كـ (محطة كنغز كروس)؛ علّه يلوذ بها من الخوف المسلط عليه، محولاً إياها إلى فضاء يجسد عقله الباطن المشتعل مع كل زيارة. إنه يسعى لاتخاذ المحطة ملاذاً يدرأ عنه التهميش والشظايا التي تتهدده، بيد أنّ الغربة المكانية ظلت تلاحقه يوماً بعد آخر؛ إذ يعيش في لندن نائياً عن أهله وفضائه الأول، مع عجزه عن تحقيق الغايات التي هاجر من أجلها. ولهذا أسهم الابتعاد عن الوطن في مضاعفة شعوره بالغربة بدلاً من توفير البديل السكني والروحي، فتحولت لندن الفاتنة إلى ما يشبه السجن النفسي الذي يتعذر عليه الفكاك منه. ونلمس هذا الشعور أيضاً في رصده لحي (ساوثهول) المأهول بالفقراء من الجاليات الآسيوية، إذ يقول: «ملابس على حبال الغسيل في شرفات الشقق، فتيات صغيرات يسرن بالساري، فيما يلفن أخريات رؤوسهن وأجسادهن باللون الأسود، بسطات تمتد من خارج المحال تبيع كل شيء، متاجر صغيرة لملابس وحقائب تحمل علامات تجارية مزيفة، مطاعم، أقمشة ومنسوجات مزخرفة تلوح من بعيد، خضراوات

RJH Raparin Journal of Humanities
A Peer Reviewed Journal
DOI:10.26750
e-ISSN: 2522-7130
RJH Website

وفاكهة في سلال صغيرة متفرقة، محال جزارة تلوح عليها سمات الفوضى، زوايا تعرض بطاقات الاتصال الدولية الرخيصة، أكوام من جوز الهند المغطى بالشعر، متاجر ذهب متراصة حيث يلمع المعدن الأصفر في واجهاتها، منازل فقيرة ووحدات من السكن الحكومي، وحشود من الناس المنسيين، ورائحة الكاري تعطر المكان برمته» (حيدر، 2023، ص 65).

أباح «عزيز» لنفسه العيش والتجوال في هذا الحي؛ ليقارن الوحدة التي يعيشها والتي جعلت منه شخصية غريبة منطوية لا تحب الحديث مع أحد؛ شخصية آثرت الغربة ورحّبت بها، ربما لأنه كان مجبراً عليها، أو لأنه استسلم لقدره فأصبح ينشد الغرباء. فكان يرتاد الأحياء النائية كهذا الحي الذي تشكل فيه الشخصية الهندية العنصر الرئيس، علّ نفسه الضائعة تجد ضالتها، ويرى من خلاله وطنه البعيد من جديد. وهنا نستحضر بيت الشاعر امرئ القيس:

أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا ... وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلغَرِيبِ نَسِيبُ (السندوبي، 1930، ص 34)

وفي سياق الحديث عن غربة عزيز سليم، يجيء هذا البيت ليجعل من الغربة سبباً للتعاطف بين المغتربين؛ فالإنسان حين يناى عن أهله وموطنه، يحتاج إلى من يمد له يد العون ويخفف عنه وطأة الوحدة، ولهذا يرى الشاعر أنّ الغريب يكون أكثر إحساساً بمعاناة نظيره، مما يدفعه إلى مؤازرته والوقوف إلى جانبه.

إنّ هذه النصوص تعبر عن رسالة تحمل في طياتها مآسي العراق بكافة أطيافه وقومياته ومنابته إبّان حكم النظام السابق، إذ تصله أخبار الفاجعة: «غفا عزيز وحامت روحه بين قرى مهجورة تطوف بين خرائبها عيون الذين ماتوا بغازات سامة نشرتها في سمائها طائرات أتت من بعيد.. فلاحون نحيلون يتجاوزون طرقات قراهم، لكن الغازات الملونة فاجأتهم بعدما ألقت الطائرات حمولتها الموجعة. توقفت الحياة.. تراجعت عن دورانها، لا شيء سوى حفيف أشجار السرو ونباح الكلاب. ارتمت ظلال القرويين على عتبات منازلهم الواطئة، تلك التي سطّرتها العجائز بالحكايات، سقطوا أرضاً فيما ظلت عيونهم باتجاه السماء التي نزفت اللعنة. تصله الأخبار المحملة بفاجعة الغازات الكيميائية التي حولت المدن الوديعة إلى مقبرة بقرار رسمي. صرخ كمن يحادث العيون التي غارت في محاجرها: تربتنا مقدسة.. القداسة ولدت بين ثنايا هذه الأرض.... ثمة أصوات تقترب من حلمه ثم تبتعد، اعتقد عزيز أن عيون الضحايا ربما أطلقت أنفاسها في قرى تتلاشى ملامحها يوماً إثر آخر.. هذه الأصوات أعرفها، إنها ليست في حلمي، بل في يقظتي» (حيدر، 2023، ص 142-143).

وفي سياق ربط الروائي بين مأساة حلبجة وفضاء البطل، تتجلى دلالة الاغتراب المكاني بصورة جليّة في شخصية عزيز الذي بدا تائهاً ومنفصلاً عن محيطه الجديد؛ فعلى الرغم من وجوده الجسدي في المهجر، ظلت روحه وعاطفته معلقتين بوطنه الأصلي العراق. ومن هنا جاءت الإشارة إلى حلبجة بوصفها جزءاً من شمال العراق، ورمزاً لمعاناة الشعب الكردي وتاريخه؛ إذ سعى الروائي إلى استحضار ذاكرة شعب طالما نادى بالحرية والكرامة، لكنه واجه القمع والاضطهاد والخذلان. وبذلك تحولت حلبجة في الرواية من مجرد جغرافيا إلى رمز للذاكرة الجمعية والألم الهوياتي الذي يحمله البطل أينما حلّ.

وعبر آليات الاغتراب المكاني، استدعى الروائي مأساة حلبجة وربطها بتاريخ الشعب الكردي وما مرّ به من محن. ولم تظهر حلبجة بوصفها حدثاً تاريخياً عابراً فحسب، بل أُدمجت داخل النسيج السردي لتصبح جزءاً حيوياً من بنية الأحداث؛ حيث مزج الروائي بين الوقائع التاريخية والخيال الفني، ورابطاً بين الماضي والحاضر، مما أسهم في نقل صورة نقلية ومؤثرة عن المأساة وتداعياتها. وعلى الرغم من أنّ الروائي غادر العراق في سبعينيات القرن الماضي -أي قبل وقوع فاجعة حلبجة- إلا أنه استطاع رسم صورة حية لمعاناة الضحايا وما خلفه الهجوم الكيميائي من خسائر إنسانية، ويبدو ذلك من خلال وصفه لمشاهد الموت والخراب وآثارها في نفوس الشخصيات، وهو ما أضفى على العمل بعداً إنسانياً جعل المأساة حاضرة في وجدان القارئ، لا كحدث مؤرشف، بل كتجربة إنسانية ممتدة الآثار.

وإذا سلّمنا بأنّ الاغتراب في معناه اللغوي يمثل الانفصال والابتعاد المكاني -سيّما مع دلالة لفظة الغربة- فإننا نجد أنّ هذه الظاهرة سبقت الوعي بها؛ إذ تدلنا المكتشفات الأثرية على رسومات لحيوانات واقعية وخرافية على جدران الكهوف خطها الإنسان القديم ولجأ إليها في صراعه مع بيئته، مما يمكن عدّه نوعاً من تغريب قوته أو الانصياع لقوة هذه الكائنات محاولةً لإرضائها أو اتقاء خطَرها، وكلاهما اغتراب عن الواقع يجسد شعور الإنسان بحدود قدرته (زامل، 2003، ص 12).

لقد حاول الروائي ربط ليلة حريق الفندق بليلة احتلال بغداد المصادفة (9 نيسان 2003)؛ حيث هدف إلى تجسيد احتراق الفندق كمعادل موضوعي لاحتلال بغداد التي تهاوت إثر سياسات النظام السابق. كما أراد أن يُبيّن أن احتراق عزيز سليم ارتبط باحتراق الذاكرة؛ فكأن الغربة التي أصابته أحدثت ثقباً في وعيه، وتداعت معها آماله في ذلك الحريق. إنّ محاولة الروائي ربط أصوله الحضارية بمكانه الثاني (لندن) كانت شديدة التعقيد لعشيشه في بيئة مباينة لبيئته الأولى؛ فغربة الكاتب هي غربة المثقف عبر

العصور، وهنا تبرز أزمة الهوية بين عراقيته وواقعه الجديد. وكان حادث الحريق حاسماً في إبراز تدهور الهوية والأنساق الحضارية التي نشأ عليها؛ إذ إنّ تداخل ذات الروائي مع العادات والتقاليد القديمة واستحضار الماضي في لحظة آنية حادّة كحريق الفندق، كانا دليلاً على ضياع أحلامه التي استحالت حطاماً يعجز عن التأقلم معه، ليستسلم في النهاية جسداً بلا روح، مشابهاً لشخصيته المحطمة الخالية من المعالم الحضارية، بوصفه كائناً لا ينتمي إلى مكان، ولاجئاً بلا مأوى، ومهمشاً يفتقر إلى الهوية.

حين عاد «عزيز» إلى الفندق مثخناً بجراح اليأس والإحباط وفقدان «سوزان»، فضلاً عن تقدم جيوش الحلفاء لاحتلال العراق، شعر بعظمة الموقف العام وخطورته، وانعكاساته الحادة على موقفه الخاص؛ إذ أدرك أنه المهزوم كإنسان، وأن الخذلان يحاصره من كل جانب. ولهذا قرر مواجهة هذا الانكسار الشخصي بمواجهة فردية ذات دلالة؛ تكشف عن موقف ورؤية ومسار حياة، فاختار إنهاء حياته جاعلاً من هذا الفعل رد فعل عنيفاً حيال ما ألمّ به. وتتضح موقفية الروائي إزاء هذه الواقعية بالنظر إلى التوقيت؛ إذ يصادف اليوم التاسع من نيسان عام 2003، وهو تاريخ دخول القوات الأمريكية إلى العاصمة العراقية، واليوم الأقسى على معنويات «عزيز»؛ فبالرغم من كونه معارضاً للنظام السابق وتعرضه للقمع والتعذيب على يد أجهزته الأمنية بسبب موقفه السياسي، إلا أن احتلال بلاده مثّل بالنسبة له إهانة معنوية عميقة، مكرراً مقولته: «ليذهب النظام وأزلامه وأجهزته القمعية وأدوات تعذيبه إلى الجحيم، ولكن ليبقى العراق.. كل العراق بخير».

كانت شرارة صغيرة كافية لإشعال روحه وجسده، لتسري النيران في أرجاء الفندق معلنةً نهاية مرحلة مثقلة بالآلام عبر فعل الحرق؛ إذ دار حول نفسه والنيران تلتهم جسده والشرار يتطاير من حوله قبل أن يسقط على صدغه. وحين دخل رجال الإطفاء الغرفة، شاهدوا جثة متفحمة تفترش الأرض وعلى صدغها آثار السقوط. إنها ليلة الموت الثلاثي: موت وطن، وموت إنسان، وموت حلم، وانطفاء الأماني بحياة أقل إيلاماً: «كأن كل شيء كان مهيئاً للنهايات؛ نهاية جروح الروح الغائرة. يرفع أعواد ثقاب مشتعلة وينثرها في زوايا الغرفة، اندهش لمشهد الأوراق والملابس والأخشاب وهي تحترق. مرت النار بجسده صارخاً: سأحرق جثتي، وسأرقص على حرائق هزائمي. بدأت النار تسري في جسده، انزوى الألم جانباً وبدأت ذاكرته بنزيف متواصل، تواصل النار زحفها في جسده بينما يقف عزيز رابضاً وسط الغرفة المحترقة بتحدٍّ غريب. شبت النار في الغرفة وزحفت إلى الغرف المجاورة لتلتهم واجهة الفندق. تذكر بعد كل جولة تعذيب محاولاً جمع أشلاء روحه التي تشظت بين أيدي الجلادين، تذكر محاولة اغتصابه وسلب روحه وانتزاع الاعتراف منه، تذكر وهو يصرخ: أنا في وهج النار الأزلية لأقترب منك أيتها الأرض البعيدة. صرخ عزيز ثم سقط أرضاً على جبهته، تلفه كومة من نيران. مرت فصول حياته كلها أمامه بسرعة لم يستطع في زحمة صراخه ووجعه أن يمسك بتفاصيلها. أتت النيران على واجهة الفندق، فزع النزلاء وهربوا مذعورين خارجاً، بدأت ألسنة النيران تقترب من غرفهم، تجمعوا أمام واجهة الفندق المحترقة، تناهى إلى مسامعهم صراخ محموم ونشيج موجع. تعالى الصراخ ثم خفت ليختفي تماماً. وفي زحمة عملهم، وجد رجال الإطفاء في غرفة في الطابق الأول بين بقايا الرماد جثة متفحمة بجرح نازف في الصدغ» (حيدر، 2023، ص 161-162).

أبرزت الرواية العلاقة الوثيقة بين الإنسان ووطنه بوصفها علاقة عضدية لا تفصمها طائلة الغربة ولا تقلبات الظروف؛ إذ عالج الروائي هذه الجدلية عبر شخصية «عزيز» التي تجسد نموذج المغترب المحاصر بزدواجية التجربة بين واقع جديد عجز عن الاندماج التام فيه، ووطن غادره جغرافياً وبقي شاخصاً في ذاكرته وانتمائه. ومن خلال تتبع مسار «عزيز» ومظاهر الاغتراب الحضاري الذي كابده، تتبدى جملة من المفاصل التي تكشف عن معاناته النفسية والاجتماعية في المهجر؛ فقد ربط الروائي بين غربة البطل والمصاعب التي واجهها في فضاء اغترابه (لندن)، حيث هيمن عليه إحساس بالوحشة والتغرب في مجتمع يباينه في العادات والتقاليد والطباع، مما أدى إلى صدامه مع واقع لم يستطع التأقلم معه. وقد انعكس هذا العجز هزةً نفسية عميقة ناجمة عن النأي عن الوطن والمحاولات المستميتة للتكيف مع بيئة مغايرة ثقافياً واجتماعياً، وهو ما عمّق لديه حس الاغتراب الحضاري، وأدخله في صراع حاد بين موروثه الثقافي وبين الواقع الحضاري الوافد.

كما ربط الروائي بين حنين «عزيز» إلى العراق وتداخل الاغتراب الحضاري مع الاغتراب العاطفي؛ فبالرغم من انفصاله الجسدي عن وطنه وأهله، ظل الوطن حياً في وجدانه، ليتداخل البعد الحضاري بالبعد العاطفي في الشواهد النصية، وتحول الحالة من اغتراب مكاني وحضاري مجرد إلى تجربة عاطفية وجودية تعبر عن الانتماء لوطن ظل حلم العودة إليه قائماً رغم تطاول سنوات النفي.

ويتجلى الاغتراب لدى هذه الشخصية بوصفه حالة متصلة من التوتر النفسي والصراع الداخلي؛ نتيجة التعثر في التكيف من جهة، واستعار الحنين إلى الماضي والوطن من جهة أخرى. وبذلك يظل «عزيز» متأرجحاً بين فضائين: فضاء يقع فيه فيزياءً ولا ينتمي إليه روحاً، وفضاء ينتمي إليه وجدانياً مع تعذر الوصول إليه. وعبر هذا التوظيف، يوضح الروائي أن الاغتراب لا يقف عند

حدود النأي المكاني، بل يتجاوزه إلى الأبعاد النفسية والهوياتية، مما يجعل منه تجربة مركبة تتدخل مباشرة في تشكيل وعي الإنسان وسلوكه. وفي خاتمة العمل، يتضح أن الراوي مهد لفكرة الموت منذ المراحل الأولى للسرد؛ إذ لم يكتفِ بالإيحاء به، بل لمح إلى كيفيته، مما جعل النهاية الفعلية نتيجة منطقية ومستجيبة لتطور الأحداث وبنية الشخصية.

الخاتمة

أصفرت دراسة رواية (عزيز سليم) للنص المرفوق عن جملة من النتائج والاستنتاجات النقدية، يُمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1. استحضار الوطن البديل: حاول الروائي استحضار الوطن الذي حلّ المنفى محلّه؛ فعندما تتلاشى الحدود الزمانية والمكانية يظهر الوطن المفقود، غير أنّ هذا الظهور يتخذ طابعاً متخيّلاً يربط الهوية بالزمان والمكان والذات واستعادتها مجدداً.

2. تعثر التكيف والهوية البديلة: قدّم الراوي شخصية «عزيز سليم» بوصفها نموذجاً يحاول بناء حياة جديدة نائية عن جذورها الأولى، عبر تبني سلوك وهوية مغايرين لما كان عليه في موطنه الأصلي. غير أنّ هذه المحاولة آلت إلى الفشل؛ إذ ظلت آثار الجذور الأولى وسلوكياتها حاضرة بقوة حتى نهاية الرواية، مما يكشف عن عمق الارتباط بالفضاء الأول وتعذر الانفصال عنه.

3. مركزية البطل وبنية الصراع: ركزت الرواية منذ بدايتها على شخصية محورية واحدة هي «عزيز سليم»، وجعلت باقي الشخصيات تدور في فلك هذه الشخصية المتقلبة والمزاجية تارةً، والثابتة والحزينة تارةً أخرى؛ لتنتهي الأحداث ببناء سردي مقيد بالعادات والتقاليد الراسخة، مجسّداً الصراع بين حياته في لندن وحياته الأولى في العراق. ومن هنا اتسمت التجربة الروائية بالواقعية؛ إذ استقت مادتها من التجربة الذاتية للكاتب لتعكس أبعادها الإنسانية والنفسية.

4. المفهوم الوعيوي للانتماء: يتضح من مسار السرد أنّ الانتماء الوطني للمغترب لا يتحدد بالبيئة أو العادات أو اللغة فحسب، بل يتشكل عبر الوعي السليم والمعرفة الواعية بالوطن، فضلاً عن قدرة الذات المغتربة على مقاومة الذوبان والضياع في بنيات المجتمع الجديد.

5. المأساة الإنسانية والرمزية التاريخية: نجح الروائي في الربط بين معاناة الشعب الكردي والبناء الخيالي للرواية، مقدماً مأساة حلبجة بوصفها حدثاً إنسانياً مفصلياً لا يزال شاخصاً في الذاكرة الجمعية رغم تطاول السنين.

6. تجذر الانتماء الخصوصي للعراقيين: كشف البحث أن ارتباط العراقيين بوطنهم يمتلك خصوصية وجدانية عميقة، ولذلك تُعدّ تجربة المنفى القسري ظاهرة قاسية ومستحدثة عليهم، وهو ما انعكس بوضوح على حياة البطل في لندن بخلاف شعوب أخرى استدمجت الاغتراب عبر تاريخ طويل وأنتجت ما يُعرف بأدب المهجر. كما برز الوعي التاريخي للشخصية العراقية عبر التفاعل الحاد مع التحولات المفصلية لوطنها (كالحرب العراقية الإيرانية، وجريمة حلبجة، والحصار الاقتصادي، وصولاً إلى الاحتلال الأمريكي وسقوط النظام عام 2003).

7. تعدد أشكال الاغتراب: تجلت صور الاغتراب في معظم الشخصيات الروائية، وفي مقدمتها الاغتراب الذاتي الذي برز جلياً لدى البطل. وقد شكلت هذه الغربة المحرك الأساس للأحداث، وأسهمت في تصعيد الصراع بين الشخصيات المهاجرة ومحيطها الجديد، مما أدى في النهاية إلى مضاعفة التشبث بالهوية والوطن الأم.

المصادر والمراجع

اسكندر، ن. ر.(1998) الاغتراب وأزمة الإنسان، اسكندرية دار المعرفة الجامعية.

جعفر، م. ر.(1999) الاغتراب في الشعرالعراقي منشورات اتحاد الكتاب العرب.

حماد، ح. (1995)الاغتراب عند أبي حيان. مجلة الفصول المصرية، 3.

حيدر، ج. (2023)غريب في لندن بغداد، جمهورية العراق، دار المفكر للنشر.

بن لحسن، ب.(2021)، مفهوم الحضارة/ دراسة تحليلية مقارنة عابرة للثقافات، مركز ابن خلدون ، جامعة قطر، bbenlahcene@queduaq.

خليفة، ع. ا. م.2003) (دراسة في سيكولوجية الاغتراب القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر.

رجب، م.(1993) الاغتراب سيرة ومصطلح، القاهرة دار المعارف.

زامل، ص.(2003.) تحوّل المثال - دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي / نقد أدبي بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار الفارس.

زعرب، ص.(2017) تحليل النص الأدبي في ضوء النظريات النقدية الحديثة، عمان – الأردن، دار مجد لاوي.

السندوبي، ح.(1930.) ديوان أمرئ القيس، مصر-القاهرة، المطبعة الرحمانية

شاخت، ش. (1980)، الاغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

عجام، ع. ع. ا.2024) (. الاغتراب الجميل بغداد، شارع المتنبي ن عمارة الكاهجي.

علي، ف. ع. ا.(1999)عشتار ومأساة تموز سوريا – دمشق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع.

النعيمي، ع. (2022). مفهوم الحضارة وعناصر تكونيها (دراسة تحليلية ومقارنة).

يقطين، س.(1997.) تحليل الخطاب الروائي, بيروت، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

يقطين، س(1997)البنيات الحكائية في السيرة الشعبية الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي.